لبنان فكرة ليست لشعبه لأنه صيغ وفق موازين خاصة بمصالح المستعمرين

المشكلة ليست في هذه النقطة بالذات التي تحتاج إلى نقاش لمعرفة كيفية استجابة لبنان لهذين التحدّيين، بل في الفكرة التي تأسّس عليها وظنّ مبتدعوها والمدافعون عنها أنها صالحة لكل زمان.

لبنان فكرة ليست لشعبه. فكرة لم يتم إنتاجها لشعب يسعى نحو الحرية والعدالة ويتطلع إلى المشاركة في الحياة الديموقراطية على مبدأ المساواة في المواطنية.

لبنان صيغ وفق موازين خاصة بمصالح المستعمرين وأتباعهم في الداخل. المستعمرون أرادوا السيطرة على الطبيعة وأتباعهم أرادوا السيطرة على البشر. فكانت هذه المعادلة القاسية التي تحمّل معها اللبنانيون المآسي والويلات والحروب والأزمات على أنواعها. بيد أنّ كل ما حصل بعد ذلك من تعديلات وتبدّلات وخروج عن الأطر المؤسسة للكيان اللبناني، هو في إطار سنّة التغيير التي لا يستطيع لا الاستعمار ولا أذنابه إبطالها. ومنذ لحظة التأسيس الأولى وحتى هذه اللحظة التي يطغى عليها اللايَقين دخل المجتمع اللبناني في صراع حاد بين الدولة الطائفية العميقة ومن يحاول اشتقاق مبادئ وقواعد لعقد اجتماعي جديد.

صراع يزداد تعقيداً في مسارات العيش ومفارقات المكان ومناهج التحديث وأنماط السيطرة ووسائل التغيير، وإذا ما ربطنا ذلك كله بالقراءات المتباينة للتطورات في المنطقة، فسيتبين لنا أنّ الخرق قد اتسع على الراتق، ولبنان الذي قيل فيه الكلام الكثير في مسوغات وجوده وشروط بقائه يهتزّ من داخل بناه وسياساته ويواجه أزمة معنوية تكبر يوماً بعد يوم لتلتقي مع السيل العارم الذي يجتاح المنطقة وينبئ عن موتها التاريخي وولادة شكل جديد من أشكال التنظيم السياسي الذي يحتمل أن يقسّم الوحدات السياسية الحالية أو يضمّها إلى بعضها البعض على هدي ما سترسو عليه توازنات ما بعد عصر سايكس ـ بيكو. ثمة علامات جوهرية على التغيير الذي يطال جغرافيات البلدان العربية والذي ليس إلا انعكاساً لتغيير أعمق يطال المعنى. والمقصود هنا: أنّ التغيير استولى على طرائق التفكير وخرق جدران الإيمانيات والأيديولوجيات والقيم وكل أوجه النشاط الخاص والعام. في لبنان على سبيل المثال، فإنّ الاستقطاب الطائفي أعلى رتبة في الوجود والفاعلية من أي مسار إصلاحي، واختزال تطلعات الشباب بالعمل للحصول على لقمة عيش أو بالهجرة للخروج من جحيم الزبائنية والاستتباع الوظيفي يسدّ أبواب الأمل ويشكل كابوس قهر للذات، والنهم الذي يسيطر على رجال المال والسياسية يكشف عن قوى عميقة تتحرك داخل المجتمع خالية من الرحمة والإنسانية.

كل ذلك يحيل إلى أنّ النزاعات القائمة حالياً على مختلف الميادين هي تعبير عن ميكانيزم المتناقضات البنيوية، التي لا يجوز أن نطلق عليها بأنها نزاعات عابرة أو تعكس حالة مرضية طارئة وإنّما نزاعات من النوع المستمر والمتحرك الذي ضرب قواعد اللبنانيين في العيش الإنساني المشترك.

نزاعات ناشئة حكماً من الخلل الجسيم في التعليم والفكر والوعي والمعرفة. لقد انطوى الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي اللبناني الكلاسيكي على لائحة طويلة من المشكلات اليومية. وعلى قدر كبير من التناقضات الفجّة خصوصاً التي تقف عند العلاقة بين الوسائل والغايات، وقد برز ذلك جلياً لحظة نقاش الاستراتيجية الدفاعية في قصر بعبدا بين القوى السياسية وما يتصل بتلك الاستراتيجية من أهداف كالسيادة والاستقلال والقرار الحر التي تتحرك جميعها في فضاء من الطوباوية والشعاراتية، لأنّه لا جدّية في استخدام الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف إلا للبعض من هذه القوى. على كل حال، فإنّ الأزمات المتكررة التي يعاني منها اللبنانيون هي أزمات بالقلب، بالروح، بالضمير، وهذه الأزمات لا تكشف عن سوءات النظام وسياساته المعتمدة وحالة التمزق الداخلي فحسب، بل عن كون البناء الفلسفي للوطن عاجز عن حمل اللبنانيين وتطلعاتهم أكثر من ذلك، وعن عمق التحولات التي تجري الآن في القيم الأخلاقية الأساسية، وعن ذلك التدافع الحضاري العالمي المهول الذي يقع اللبنانيون في خضمّه ليرسم سؤالاً حاسماً عن الكيان انفلاشاً أو انكماشاً. فإذا كان انفلاشاً في جغرافيات الغير فمَن يقود هذا التوسّع وفي أي سياق، وإذا كان انكماشاً في جغرافيا الذات فضمن أي ظروف تاريخية داخلية وخارجية!

*كاتب وأستاذ جامعي

على واشنطن التسليم بالتعاون مع روسيا والصين لحل المشكلات العالمية

وهي مرشحة لتصل إلى نحو 23 تريليون دولار في السنوات المقبلة، ما يوسع الهوة بين حجم ناتجها القومي الكلي البالغ 14,5 تريليون دولار، ونسبة الدين، ويزيد من عبء فوائده المرهقة للاقتصاد، ويجعلها تغرق أكثر في أزمة مديونية غير مسبوقة في التاريخ، ما يؤشر إلى انتهاء وتلاشي عصر القوة الاقتصادية الأميركية المهيمنة على الاقتصاد العالمي، بعد أن أصبح من المستحيل على أميركا أن تخرج من أزمتها مع احتفاظها بالمرتبة الأولى، في ظل تصاعد وتيرة المنافسة الاقتصادية الدولية للاقتصاد الأميركي في الأسواق العالمية. وفي السوق الأميركية على حد سواء، وباتت واشنطن تواجه استحقاق الإقرار بهذا الواقع، والعمل على أساس أن إمكانياتها وقدراتها الاقتصادية لم تعد تسمح لها بالتصرف باعتبارها الدولة الأقوى في العالم، وبالتالي عليها التسليم بالتعاون مع روسيا والصين لحل المشكلات العالمية، وهو ما يدفع الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب إلى التركيز على التعاون مع روسيا، وعدم التورط في حروب جديدة والقول إن أولويته في سوريا هي محاربة "داعش" وليس الإطاحة بالرئيس بشار الأسد، وكذلك العمل على إعادة النظر باستمرار انخراط أميركا في سياسة العولمة التي يعتبرها السبب في تراجع الاقتصاد وازدياد البطالة وارتفاع إعداد الفقراء وتدني مستوى حياة الأميركيين.

ولأن مقياس القوة لأي دولة في العالم يبنى على أساس القوة الاقتصادية، فإننا نشهد هذه الأيام تقدماً ملحوظاً في النفوذ السياسي الدولي للصين وروسيا، في مقابل انحسار، وتراجع نفوذ الولايات المتحدة على المسرح العالمي، وظهر ذلك بوضوح في الآونة الأخيرة، في مجلس الأمن الدولي، من خلال استخدام الفيتو المزدوج أكثر من مرة في مجلس الأمن من قبل الصين وروسيا، في مواجهة أميركا وحلفائها من دول الغرب، التي عجزت عن استصدار قرارات عن مجلس الأمن تسمح لها بالتدخل في سوريا لإسقاط نظامها الرافض لمشاريع الهيمنة الغربية، على غرار ما حصل في ليبيا والعراق، في محاولة للإبقاء على هيمنتها على العالم، ومنع إقامة نظام دولي يقوم على التعددية والتشاركية واحترام سيادة واستقلال الدول. وعليه يمكن القول، وبكل تأكيد، أن أميركا لم تعد قوة عظمى مهيمنة على العالم، وهي أصبحت في ميزان القوى الدولي الحالي واحدة من عدة دول كبرى، إلى جانب الصين، وروسيا، إلخ. ولهذا فإن الإمبراطورية الأميركية دخلت في مسار تراجعي لتصبح واحدة من الدول الكبرى المقررة، وليست القوة الوحيدة.

*صحافي لبناني

شذرات

الكومندانتيه: الأساطير لا تموت

زياد منى

لم أتشرف يوماً بلقاء الزعيم الكوبي والعالمي الراحل، لكنني أعدها من دواعي الشرف أني عشت في زمن فيدل كاسترو وعايشته، رغم أني كنت حدثاً عندما انتصرت ثورة الشعب الكوبي بقيادته هو ورفيقه المغدور تشي غيفارا على نظام الدكتاتور باتيستا، نظام الظلم والتبعية لواشنطن.

في ذلك الوقت، هافانا، إلى جانب هانوي، كانت في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته مركز إشعاع ثورات الضعفاء على الأقوياء، ثورات المظلومين على الظالمين، والضحايا على المعتدين.

تلك كانت ثورة فيديل كاسترو وتشي غيفارا، اللذين ألهم اسماهما ثوار العالم على الإمبريالية العالمية بقيادة واشنطن وأذنابها الناتويين، في الغرب الاستعماري وفي بقية أنحاء العالم وعلى نحو خاص في دول أعراب العمولة والعمالة.

في تلك المرحلة من تاريخ العالم، التي أعقبت الحرب الأوروبية الأهلية الثانية، المسماة، كما الأولى، الحرب العالمية، انطلقت حركات التحرر العالمية لتطرد الاستعمارين البريطاني والفرنسي اللذين فتكا بالشعوب المستعمَرة وببلادها وثرواتها وتواريخها ومواضيها. لكن تلك المرحلة شهدت أيضاً حلول الولايات المتحدة الأميركية محل الإمبراطورية التي توقفت الشمس عن الشروق عليها، بعدما كانت «التي لا تغيب عنها الشمس»! واستحالت واشنطن مركز العدوان في العالم، ورمزه الأول، من تولي قيادة المشروع الصهيو ـ إمبريالي لاغتصاب فلسطين وطرد أهلها من بلادهم وبيوتهم وحقولهم ومراعيهم، إلى التآمر على إيران والإطاحة بحكومة الزعيم المناضل المنتخب محمد مصدق، ودعم الانقلابات العسكرية في شرق المتوسط وكان أولهما في شرق المتوسط في سورية، مسرح عدوانها المستمر علينا وعنوان برطعتها المستمرة.

لم تتوقف واشنطن عن شن الحروب في مختلف أنحاء العالم، حتى قبل اندلاع الحرب في أوروبا وآسيا وقبل انتهائها. فشنت العدوان تلو الآخر في آسيا، أكثرها دموية وأقلها معرفة بتفاصيلها، حرب الإبادة بحقّ مسلمي الفيليبين المعروفين بـ«مورو»، ثم انتقلت لتدعم عدوان فرنسا في جنوب شرقي آسيا وفي شمالي أفريقيا، إضافة إلى دعم التكفيريين من آل سعود، ضد نجد والحجاز وعسير، والقائمة تطول وتطول.

خمسينيات القرن الماضي وستينياته شهدت أيضاً صعوداً غير مسبوق لحركات التحرر في العالم المستعمَر، وظهور شخصيات فذة فيه، منهم المناضل الكونغولي المغدور باتريس لومومبا وأحمد سيكو توري في غينيا، وكوامي نكروما في غانا، وعبد الناصر في مصر، وجواهر لال نهرو في الهند، وفي سيلان بندرنايكة، أول رئيسة دولة في العالم الحديث، وأحمد سوكارنو في إندونيسيا، وهو شي منه في فييتنام، وأحمد بن بلله ورفاقه في الجزائر، وجوليُس نيريري في تنزانيا، ونلسون منديلا في جنوب أفريقيا، وبيرون في الأرجنتين، وأخيراً وليس آخراً فيدل كاسترو ورفيقه إرنستو تشي غيفارا.

تلك كانت أيقونات ثورية وأسماء تلهم شعوب العالم المناضل من أجل التحرر. لكن كوبا فيدل كاسترو وتشي غيفارا شكّلت استثناء. فرغم قوة واشنطن العسكرية والاقتصادية وانتشار قواتها في مختلف أطراف المعمورة، إلا أنّ تحدي هافانا لها كان استثنائياً لأن كوبا لم تكن تبعد عن شواطئ ولاية فلوريدا أكثر من مئة كيلومتر، ومن منّا ينسى مغامرة خليج الخنازير الفاشلة!

الثورة الكوبية بقيادة زعيمها الراحل، كانت المخرز في عيون واشنطن العمياء عن حقوق الشعوب، ولم تفلح كافة محاولاتها التخلص منه، رغم نجاح جرائمها ضد محمد مصدق وأحمد سيكو توري وكوامي نكروما وباتريس لومومبا وأحمد سوكارنو. ينقل عن الرئيس الكوبي الراحل قوله: لو كانت النجاة من محاولات الاغتيال إحدى مبارزات الألعاب الأولمبية لفزت بالميدالية الذهبية. 638 محاولة اغتيال خططت لها واشنطن وأذنابها ضد الزعيم الكوبي لكنه نجا منها جميعها، من دون أن يتراجع ولو خطوة عن مبادئ ثورته، إلى أن اضطر أوباما للحضور أخيراً إلى هافانا معلناً هزيمة مشاريع بلاده للقضاء على روح الثورة في العالم المستعمَر.

ولفلسطين مكانة خاصة في كوبا فيدل كاسترو. فقد أخبرني صديق عزيز حظي بزيارة تلك البلاد وباللقاء بالقائد، الكومندنتيه، بأنه زار ضمن وفد فلسطيني، مدرسة في هافانا تحمل اسم «فلسطين»، وفوجئ بعمق معارف التلاميذ المفصلة عن وطننا المغتصب ومدنها. ولما استفسر عن سر تلك المعارف أخبره المضيفين أن تلاميذ المدرسة قسموا إلى مجموعات كل واحدة تحمل اسم مدينة من مدن فلسطين المحتلة، وكان معرفة كل ما توافر من معلومات عن تلك المدينة جزء لا يتجزأ من منهاج الدراسة، وكانوا في نهاية الفصل الدراسي يجتمعون ويتبادلون معارفهم عن فلسطين لتتكامل الصورة عندهم.

فلنتذكر كاسترو «الفلسطيني» في الوقت الذي تتبارز فيه زعامات ميليشيات رام الله (ومن قبلها في بيروت) فما بينها، على التنازل عن وطننا وتغيير المناهج لتبني الرواية الصهيونية، وتتقاتل في ما بينها وتتهالك عند قدمي العدو لنيل تنصيبه لها لمنصب المندوب السامي للعدو الصهيوني على أبناء شعبنا وفي وطننا، من رأس الناقورة شمالاً إلى أم الرشراش جنوباً.

ألم أقل إني محظوظ حقاً لأني عشت في زمن هؤلاء العظماء وفيديل وتشي في المقدمة منهم!